كتاب تذكاري

# تمّام حسّان

## رائداً لغويا

### بحوث ودراسات مهداة من تلامذته وأصدقائه

إعداد وإشراف
الدكتور
عبدالرحمن حسن العارف
جامعة أم القرى، مكة المكرمة

عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ت: ٣٩٢٦٤٠١

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب
على مسئولية أصحابها

عالم الكتب
نشر * توزيع * طباعة

الإدارة :
١٦ شارع جواد حسني
تليفون : ٣٩٢٤٦٢٦
فاكس : ٣٩٣٩٠٢٧

المكتبة :
٣٨ ش عبد الخالق ثروت
تليفون : ٣٩٢٦٤٠١
ص.ب : ٦٦ محمد فريد
الرمز البريدي : ١١٥١٨

الطبعة الأولى ١٤٢٣/٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٣٤٠٨
الترقيم الدولي : 977-232-305-2

# نحو أطلس لساني عربي: المساهمة التونسية

أ.د. الطيب البكوش
أ.د. صالح الماجري
تونس، الجامعة التونسية

١ ـ يندرج الأطلس اللساني ضمن البحوث اللسانيّة الجغرافية التي تسجّل الاستعمال اللساني في مناطق بمختلفة من الرقعة الجغرافيّة المعنيّة بالدراسة، فهي بحوث تهتمّ بالتنوّع اللساني المرتبط بالاختلاف الجغرافي. وقد جاءت تسمية الأطلس من تسجيل هذه الاختلافات في خرائط جغرافيّة يمكن أن تكون محليّة أو وطنيّة أو حتى إقليميّة، مثل البلاد العربيّة بمناطقها الكبرى مغرباً ومشرقاً.

وإنّ الاهتمام بالاختلافات اللغويّة ليس أمراً حديثاً، فنحن نجد في التراث اللغوي العربي مادّة غزيرة تتضمّن تسجيلاً للاختلافات اللّهجيّة، بغضّ الطرف عمّا يصحب ذلك من تصنيف لها على سلّم الفصاحة من الاستحسان إلى الاستهجان.

وتشمل هذه المادّة ظواهر متنوعة منها الصوتي والصرفي، ومنها النحوي والتركيبي، ومنها المعجمي والدلالي. ويكفي النظر في معجم كلسان العرب لابن منظور، أو كتاب سيبويه، أو شرح ابن يعيش لمفصل الزمخشري، لتتبين غزارة هذه المادّة.

ولعلّ الاهتمام بضبط قراءات القرآن والمفاضلة بينها، قد كان من العوامل الرئيسيّة ـ لا الوحيدة ـ وراء جمع هذه المادّة الهامّة التي تمكّننا اليوم من رسم خريطة اللسان العربي في شبه الجزيرة منذ أربعة عشر قرنا، وإن كانت خريطة تفتقر إلى الدقة والشمول؛ لأنّها لم تكن هدفاً في ذاتها آنذاك، وإنّما كان الهدف ضبط المستوى اللساني الأفضل والأجود والأفصح لقراءة القرآن.

أمّا اليوم فإنّ غياب المشاغل القديمة بحكم استقرار القراءات استقراراً نسبياً بفضل اكتمال علم التجويد، قد جعل تسجيل الاستعمالات الحديثة أمراً غير واضح الأهداف، وليس محلّ إجماع حتى لدى المختصين، لذلك فإنّ من الضروري توضيح القضية موضوعياً بالإجابة عن جملة من التساؤلات من أبرزها: أيّ عربيّة نصف، وأيّ اختلافات نسجّل، وإلى أيّ غاية نسعى؟

١ ـ ١ إذا كانت العربيّة قديماً تصنّف تفاضلياً حسب درجة فصاحتها طبقاً لمقاييس سبق أن حلّلناها في مواضع سابقة[١]، فإنّ عربيّة اليوم تُصنّف أشكالُ إنجازها بطريقة مختلفة:

فصحى ودارجة، تتضمّن كلّ واحدة منهما فى كلّ بلد عربىّ رصيداً مشتركاً ورصيداً متميّزاً، وذلك فى جميع المستويات الصوتيّة والصيغيّة والنحوية والمعجميّة والدلالية. فالمفاضلة لا تقع بين الفُصْحَيات والدّارجات من بلد إلى آخر، وإنّما بين المستوى الفصيح إجمالا والمستوى الدّارج إجمالا، وهى مفاضلة تقوم على تحقير الدّارجة وتمجيد الفصحى لاعتبارات دينيّة وثقافيّة وسياسيّة، باعتبار الفصحى لغة الكتاب المقدّس، ولغة التراث والإبداع، ولغة الوحدة والأمة قاطبة. وقد نتج عن هذا التطوّر فى العلاقة بين مستويات العربيّة تركيز الاهتمام فى الدّرس اللغوى على الفصحى وإهمال الدّارجة، وقد انجرّ عن ذلك غياب الوصف الشامل للدّارجة. فإذا استثنينا بعض المبادرات فى الوصف الصوتى أو المعجمى لا نكاد نعثر على نحو شامل لأىّ من الدّارجات العربيّة الحديثة، ولذلك أسباب عدّة منها عدم الوعى أو الاقتناع بجدوى مثل هذه الأعمال، ومنها اقتران البحوث اللّهجيّة بمشاغل بعض المستعربين المستشرقين التى كانت محلّ ريبة أحيانا، ومنها أخيراً التخوّف من دعوة بعض العرب فى وقت من الأوقات إلى الاستعاضة عن الفصحى بالدّارجة، وهى دعوة خاطئة من الناحية الاستراتيجية؛ هذا فضلاً عن توهم البعض أن الدارجة لانَحْوَ لها.

١ ـ ٢ كلّ ذلك جعل الاهتمام بالدّارجة أمراً غير مرغوب فيه وغير مشجّع، ولذلك لا نجد على حدّ علمنا فى الجامعات العربيّة اهتماماً بالدّارجة تدريساً وبحثاً، فى حين أنه مكمل لدراسة الفصحى، فالدراسة اللسانيّة التى تتخذ من الدّارجة موضوعا، لها ما يشرّعها وما يجعل منها ضرورة علمية وحضارية، فالدّارجة مهما وصفت لن يمكنها احتلال موقع الفصحى فى البلاد العربيّة، ولا خوف على الفصحى منها إطلاقاً لأسباب تاريخية وحضاريّة وسياسيّة. ولا شىءَ يدلّ على أنّ ذلك سيتغيّر يوما، بل إنّ جميع المؤشّرات الموضوعيّة تدلّ أكثر فأكثر على التّفاعل الإيجابى بين الدّارجة والفصحى بشكل يخدم الفصحى فى المقام الأوّل، ويزيد من حيويّتها وقدرتها على مواكبة العصر.

والدّارجة لغة المهد بالنسبة إلى كلّ عربىّ، وجزء من هويّته وترجمان وجدانه، وهى تختزن ثقافة شعبه وعبقريّته وتجربته فى الحياة، فكيف يعقل أن يحتقرها لأنّها دارجة ؟ ولا مراء فى أنّ من حقّر من لغته فقد حقّر من نفسه ومن قومه، فالدّارجة جزء من العربيّة ومستوى من مستوياتها، تتفاعل إيجابياً مع غيرها من مستويات العربيّة، فإذا اقتنعنا بذلك اقتنعنا بأنّ دراستها ووصفها يصبحان ضرورة علميّة وحضاريّة ملحّة، بدونها تبقى دراسة العربيّة منقوصة كسلسلة فاقدة لبعض حلقاتها.

فى هذا الإطار يتنزل «الأطلس اللّسانى» الذى يسجّل الاستعمال الحىّ واختلافه من جهة

إلى أخرى، وليس من الطّبيعي أن تكون الأطالس العربيّة المتوفّرة من إنجاز غير العرب وحدهم، كما لو أنّ الأمر لا يهمّ الباحثين واللّسانيين العرب.

٢ ـ ولقد كانت فكرة إنجاز الأطلس اللّساني التونسي، باعتباره جزءاً من الأطلس اللّساني العربي، تراود الرعيل الأوّل من اللّسانيين التونسيين في قسم الألسنيّة بمركز الدّراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، الذي أنشيء في أوائل السّتينات في صلب الجامعة التونسيّة، وفي مقدّمتهم رئيس القسم المرحوم صالح القرمادي، لكن نقص الإمكانيّات البشريّة والماديّة والاهتمام ببحوث كانت تبدو أوكد آنذاك قد حالا دون الشّروع في إنجازه. وقد انتظر المشروع إنشاء جمعيّة اللّسانيّات بتونس منذ حوالي عشر سنوات، وعقد المؤتمر الأخير الذي قرّر الشروع في إنجاز المشروع الذي قبلت كتابة الدّولة للبحث العلمي والتكنولوجيا تمويله كمشروع وطني لمدّة ثلاث سنوات (١٩٩٧ ـ ٢٠٠٠)، وإنجازه في صلب المركز المذكور الذي أصبح تابعاً لها.

وانطلق العمل بإدارة رئيس الجمعيّة الأستاذ الطّيب البكوش، ومشاركة أمينها العامّ الأستاذ صالح الماجري، وثلّة من الجامعيّين والباحثين الميدانيّين الشبّان.

٢ ـ ١ ـ ولقد كان غرضنا ـ فضلاً عن إنجاز هذا المشروع الطّموح ـ تكوين مجموعة من الباحثين الشّبان يتدرّبون على البحث ويستكملون العمل الميداني بالبحث القائم على ترتيب المادّة الحاصلة ووصفها واستقرائها حتّى ترسخ قدمهم في البحث العلمي اللّساني. ولقد تمّ اختيار المستجوبين أساساً من طلبة المعهد العالي للتكوين المتواصل الذين هم أصلاً من أسرة التّعليم الابتدائي والثانوي، من مناطق مختلفة، تحمّسوا للمشروع وآمنوا به فكانوا عاملاً أساسيّاً في إنجاحه خصوصاً أنّنا لم نعاملهم كمنفّذين، وإنّما اعتبرنا المشروع مَخْبراً يشاركون فيه في التّجارب وطرح المشاكل والبحث عن الحلول، وضبط المنهجيّة ومواكبة تطوّر المشروع في جميع مراحله.

٢ ـ ٢ ولقد كانت أولى المراحل القيام بمجرد لما تمّ إنجازه عربيّاً من أعمال نظريّة أو وصفيّة أو ميدانية ذات صلة بالأطلس، منها بعض مشاريع الاستجوابات والمونوغرافيّات المتنوّعة والمتفاوتة القيمة.

ولقد لفت انتباهنا أنّ محور المشاغل السّابقة قد كان المعجم رغم غياب وصف منظّم للجوانب الأخرى من العربيّة التّونسيّة وخاصّة نحواً وصرفا.

وواضح أنّ الهدف الرئيسي لم يكن جمع مادّة غزيرة صالحة لوصف شامل يتجاوز إطار الأطلس، وإنّما الهدف هو وصف الخصوصيّات الجهويّة في جميع مجالات اللّسان، لذلك توصّلنا إلى حلّ مغاير لما جرت عليه العادة وهو تصوّر ثلاثة استجوابات مختلفة (صوتي وصرفي نحوي ومعجمي)، تركز على الخصوصيّات المميّزة لكلّ جهة مقارنة بالمرجع وهو العربيّة الفصحى.

وانطلاقاً من هذه الاختيارات المنهجيّة شرعنا في الإنجاز طبق المراحل التّالية: صياغة الاستجوابات، والقيام بها ميدانيّا، ثمّ معالجة نتائجها.

٢ ـ ٣ ـ لقد تطلّبت صياغة الاستجوابات القيام بتجربة أولى بيضاء كانت ضروريّة لتحسين العمل وتجنّب الأخطاء، قبل التّقدّم في الإنجاز مراحل يصبح بعدها الإصلاح باهظ الكلفة.

كما استفدنا من الأعمال اللّهجيّة السّابقة التي قام بها مستعربون أو تونسيّون، ومن تجارب من رسخت قدمهم في الميدان في الغرب ولا سيّما فرنسا حيث توجد تقاليد عريقة في هذا الضّرب من الأبحاث في جميع المقاطعات تقريباً، مثل جزيرة فرنسا حيث العاصمة باريس، وبلاد الباسك، وجهة ليون وغيرها.

وقد نظّمنا بصفة موازية حلقات درس خاصّة بالفريق أو بمشاركة مختصّين أجانب سمّيناها لقاءات «الأطلس اللّساني»، كانت ذات مردود إيجابي على المشروع ولاسيّما في مستوى حوسبة النّتائج.

ففي هذه اللّقاءات تناقش مشاريع الاستجوابات وتجربتها ميدانيّا قبل الصيّاغة النّهائيّة والتّطبيق الميداني النّهائي.

وقد كان اختيار الصيّاغة النّهائيّة مستنداً إلى مواطن الافتراق بين الدّارجة والفصحى، وإلى ملامح الخصوصيّات الجهويّة أو الاجتماعيّة، وإلى الانتقاء المفتوح على الشمول.

٢ ـ ٣ ـ ١ ـ من حيث الافتراق هل نعتبر الفصحى والدّارجة مستويين من لسان واحد أم لسانين مختلفين كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون في المقدّمة عندما اعتبر عربيّة أهل جيله لغة قائمة بذاتها مغايرة للغة مضر[٣].

نلخّص هنا موقفنا من القضيّة دون تفصيل[٤]، فرغم أنّنا نعتبرهما لسانين نظاميّا، فإنّنا لا نرى تناقضاً في اعتبارهما وظيفيّا مستويين من لسان واحد أشمل هو العربيّة، وفي جميع الأحوال يكون من الهام في إنجاز الأطلس اللّساني البحث عن عناصر الافتراق بين الفصحى والدّارجة لأنّه يوضّح أيضا عناصر الاتّفاق، وهنا نورد بعض الأمثلة للتوضيح:

في المستوى الصّوتي نكتفي بمثال المقابلة الشّهيرة في تونس بين القاف والقاف (الشّبيهة بالجيم القاهريّة)، وهي مقابلة حيّرت ابن خلدون منذ ستّة قرون[٥]، فالقاف اللهويّة الشّديدة المهموسة باقية في قراءات القرآن وفي لهجات الحضر، أمّا القاف الأقصى حنكيّة الشّديدة المجهورة فتميّز لهجات البدو أو الحضر الذين تأثّروا بهم، والصوتان بديلان من صوتم واحد في بعض الأحيان، وهما صوتمان في أحيان أخرى (مثال ذلك: قدم «قدم»/ قدم «كدم»/ قدف «جدف»/ قدف «قذف أي نقيّا»).

إنّ البحث الميداني في إطار الأطلس هو الذي يبيّن حدود هذه الظّاهرة وأهميّتها اللّسانيّة. وثمّة ظواهر صوتيّة عديدة أخرى قابلة للدّرس مثل مآل حروف ما بين الأسنان، والحروف البينيّة، ونطق الهمزة، والتفخيم، والإدغام، والتقريب، والتّباين، والتّبادل، والنّظام الحركي، وغيرها من الظواهر الصوتيّة الهامّة.

وتبرز مواطن الافتراق أكثر في المجال الصّرفي النّحوي، ويمكن أن نذكر مثال أسماء الموصول التي اختصرتها الدّارجة في اسم واحد (إلّي)، بينما تكاثرت أسماء الإشارة بشكل لافت للانتباه.

٢ ـ ٣ ـ ٢ ـ إنّ كلّ استجواب لا يمكن أن يدّعي الشّمول، ولا يمكن أن يستوعب جميع الظواهر، وهو أمر نتبيّنه في الأنحاء وفي المعاجم، فمن باب أولى وأحرى في استجواب محدود في الزمن.

تجاوزاً لهذا النّقص رأينا عدم الاكتفاء بالأسئلة الموجّهة، وترك الاستجواب مفتوحاً قابلاً للتوسيع والإضافة بفضل تقنيّات الحوسبة، فعلى هذا الأساس تصوّرنا البرنامج الحاسوبي.

كما تركنا في الاستجواب هامشاً هاماً للحوار الحرّ، منه ما يتّصل بتعاليق يقوم بها المخبرون حول الاستعمال اللّساني ذاته، وهي هامّة لبيان مدى الوعي بالفوارق اللّسانية.

هذا الهامش الحرّ يقوم بوظيفة التّعديل لضغوط الاستجواب الموجّه أو شبه الموجّه.

وهكذا يبقى باب الشمول مفتوحاً، وتبرز الخصوصيّات أكثر، ويتمّ التّركيز على نقاط الاختلاف والافتراق، فنحصل على مادّة ثريّة لم تكن مبرمجة مسبقا، ويتعدّل الاستجواب ويكتمل.

٣ ـ كيف يتمّ تحقيق ذلك ميدانيّا؟

إنّ الخوض في هذا الموضوع يتطلّب تحليلاً طويلاً، لذلك نكتفي ببعض المحطّات الهامّة:

٣ ـ ١ ـ من حيث اختيار الشبكة، بلغ عدد مواطن الاستجواب ٢٥٠ موقعاً جغرافياً تمثّل مراكز المعتمديّات التي تتكوّن منها الولايات.

وقد تمّ اختيار أربعة مخبرين في كلّ موقع باختلاف الجنس والسّن، وإنّ اختيار مراكز المعتمديّات يرتبط بالصبغة الوطنيّة للأطلس، حتّى يغطّي التمثيل كامل مساحة البلاد التونسيّة. ثمّ إنّ مركز المعتمديّة يمثّل كامل الجهة إجمالا. ويعبّر عن الحركيّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وتبعاً لذلك الحركيّة اللسانيّة لكامل المنطقة.

وإن تجاوز هذا المستوى باختيار شبكة أدق يحولنا حتماً من الأطلس الوطني إلى الأطلس الجهوي الذي يمكن تصوّره في مرحلة أخرى متقدّمة من البحث، أمّا ما دون ذلك فإنّه يوقع في التقسيم الاعتباطي ويضعف من التمثيليّة، وهكذا بلغ عدد المخبرين الذين تمّ استجوابهم ألفاً لكلّ استجواب، أي ثلاثة آلاف وحدة تسجيليّة في الجملة بمعدّل ساعة لكلّ وحدة.

٣ ـ ٢ ـ أمّا تقنياً فقد اضطرتنا ظروف معيّنة إلى التسجيل على أشرطة مغناطيسيّة، وكان بودّنا القيام به بصفة مرقّمة منذ البدء حتّى لا نضيّع الوقت في عمليّة الترقيم بعد التسجيل؛ لأنّها ضروريّة للمعالجة الآليّة بالحواسيب.

وهي عمليّة نحن بصدد القيام بها حاليّا بصفة موازية لعملية المعالجة الإعلامية.

٣ ـ ٣ ـ أما فيما يخصّ سير عمليّات الاستجواب فإنّها كثيرة التفاصيل. ونكتفي في هذا السياق بالإحالة إلى بنك المعلومات المتوفّرة حاليّا، وهو يضمّ ٩٠٠٠ بطاقة: ثلثها للمستجوبين، والثلث الثاني للمخبرين، والثلث الأخير لعمليّة الاستجواب ذاتها. وتتضمّن هذه البطاقات جميع المعلومات الهامّة الخاصّة بكلّ طرف من أطراف عمليّة التسجيل وملابساتها.

إنّ جميع هذه الأعمال تبقى منقوصة أو مادّة خاما إن لم تتوّج بالمعالجة الآليّة وهي أدقّ المراحل في هذا المشروع، وهي حاضرة في الذهن منذ البدء إذ تؤخذ بعين الاعتبار منذ صياغة الاستجوابات وأثناء عمليّة التسجيل، بانّباع نسق موحّد حتّى يمكن الاستغلال الآلي.

إنّ فريقنا منكبّ حاليّا على عمليّة الترقيم ـ وهي مكلّفة جدّا طاقة ووقتا ـ ، وعلى برمجة التصرف في جميع المعطيات، عن طريق تحقيق البرمجة المنظمة للمعطيات الصوتيّة حتى يمكن استغلالها في صنع الخرائط التي نأمل أن تصدر أوائلها في الأيام القادمة إن شاء الله.

## الهوامش

(١) انظر: الطيب البكوش «إشكالية الفصحى والدارجة» ضمن [قضايا اللغة العربية المعاصرة]، الالكسو. تونس ١٩٩٠، ص ص ١٧٣ ـ ٢١٤، وكذلك «العلاقة بين الألسن ومستوياتها عن التراث العربي» حوليات الجامعة التونسية، عدد ٣٦ ـ ١٩٩٥، ص ص ١١ ـ ٣٤.

(٢) أنجز الألماني بيتر بنشنات ثلاثة أطالس عربية حديثة (مصر وسوريا واليمن) نشرت بالألمانية.

(٣) انظر المقدمة: الفصول ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ من الباب ٦.

(٤) انظر مناقشة القضية في الطيب البكوش «هل الفصحى والدارجة لغتان؟» المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد ١٠٠ ـ ١٩٩٠، ص ص ٨١ ـ ٩٥.

(٥) المقدمة: الفصل ٣٨ من الباب ٦.

## المراجع


بالإضافة إلى المراجع المذكورة في الهوامش، نحيل إلى قائمتي المراجع المصاحبة للبحثين المذكورين في الهامش الأول، ونضيف إليها المراجع التالية:

ـ الطيب البكوش وصالح الماجري «الأطلس اللساني التونسي، تحقيق هوية وعامل تنمية». قيد النشر ضمن أعمال ندوة «اللغات مستقبلها في تونس». المعهد العالي للغات ١٩٩٨.

ـ «الاشكاليات الصوتمية في الأطلس اللساني التونسي». قدمت بالفرنسية في مؤتمر الجمعية الدولية للهجات العربية، مالطة ١٩٩٨.

ـ ثلاث محاضرات حول الأطلس التونسي: الخصوصيات الصوتمية، والاستجواب الصرفي نحوي، وعمليات الاستجواب. قدمت بالفرنسية في مؤتمر نفس الجمعية السابقة المنعقد بالمغرب (مراكش ٢٠٠٠)، وهي بالفرنسية.

ـ الطيب البكوش «الدراسات اللسانية والتنمية». محاضرة افتتاح السنة الجامعية ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠، بالمعهد العالي للغات بتونس. قيد السحب ـ تونس ٢٠٠٠.